

دِرَاسَات حَضَارِيَّة مُعَاصِرَة

١



الإسلام في المعترك الحضاري

عمر بهاء الدين الأميري

أستاذ كرسي «الاسلام والتيارات المعاصرة»
في دار الحديث بجامعة القرويين
وأستاذ «الحضارة الإسلامية»
في كلية الآداب بجامعة محمد الخامس في المغرب

صدر عن دار الفتح للطباعة والنشر بيروت ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م

الإسلام في المعترك الحضاري

عمر بهاء الدين الأميري



« محاضرة »

الناشر
دار الفتح للطباعة والنشر
صندوق البريد ٤٢٩٥ - بيروت

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

ربيع الثاني ١٣٨٨ ﻫ

[illegible] ١٩٦٨ م

هَذهِ المحاضَرَة :

- بدعوة من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت .
- وهي المحاضرة الثالثة في موسمها الثقافي الثالث .
- ألقيت في دار الثقافة والتوجيه بالشامية فيمدينة الكويت مساء يوم السبت في ٢٤ من ذي الحجة ١٣٨٧ الموافق ٢٣ من آذار (مارس) ١٩٦٨ .
- وهي أولى محاضرتين لنفس المحاضر في نفس الموسم .
- تطبـع للمرة الأولى .



... فلا أقسم بما تبصرون ، وما لا تبصرون ؛ إنه لقول رسولٍ كريم ،
وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكّرون ،
تنزيلٌ من رب العالمين ، ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه
باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين ، وإنه لتذكرةٌ
للمتقين ، وإنا لنعلم أنّ منكم مكذبين ، وإنه لحسرةٌ على الكافرين ،
وإنه لحقُّ اليقين ، فسبّح باسم ربك العظيم ...

(قرآن كريم)

الإسلام في المعترك الحضاري ...

إسلام ... حضارة ... معترك ...

الإسلام

إذا كان للكلمات مجدٌ ، فكلمة «الإسلام» من أكبرها مجداً، إنها كلمة ذات أبعادٍ وامتداد ، فهي جامعة حيناً ، ومانعة كذلك ، حيناً آخر ، لها أسرة عريقة ، وتاريخ طويل ، وسرٌ يجعلها وكأنها ذات روح ! فلفظها أكبر دلالةً من الألفاظ ! ومعناها ، أغزر استيعاباً من المعاني ! سارت مع الهداية الإلهية في ركب النبوّات ، وكانت للانسانية رمزاً نامياً لدستور حياتها السويّة ؛ حتى إذا بلغت الإنسانية مبلغ جدارة الإشعاع والتوليد والإبداع ، منطلقةً من الأصل الأصيل ، والجوهر الثابت المعطاء ، أصبحت كلمة « الإسلام » مصطلحاً لأمرٍ حكيم ، وشأوٍ عظيم ، وعَلَماً على رسالة خالدة ، ودعوة سائدةٍ رائدة ...

طاعة للخلاّق

يتأمل العقل الإنساني الواعي في الكون ؛ مستوعباً ، متبصراً ، مدركاً ؛ فيتقرر لديه :

أن الحياة الطبيعية ، ومظاهرها ، قد انبثقت عن قوةٍ

عليا ، وإرادةٍ هادية ، هي « القدرة الالهية » المبدعة ، التي يتنزّه خلقها عن العبث واللغو والإسفاف ، وبالتالي فإن كل مظاهر الحياة الطبيعية ، لا بد أن تكون لها قيمها الإيجابية الخاصة بها .

وحين تنطلق المخلوقات ، وفق إرادة خالقها ، بتجاوبٍ وإذعان ، تكون قد انطلقت عن طاعةٍ ، وهذه الطاعة ، هي ما نسميه « إسلاماً » !

تكييف مع نواميس الحياة

فالإسلام إذن ، بالنسبة للإنسان، أيّ إنسان ، هو تكييف سلوكه مع نواميس الحياة كما شرعها الله ، خيراً لا شرَّ فيه ، تكييفاً يحقق الحكمة الإلهية من خلقه في هذه الأرض .

ميزان الخير والشر

والخير والشرّ ، لا يمكن ترك أمر تحديدهما للناس اعتباطاً، لأن ما يتوصل إليه الإنسان الواحد ، أو الجماعة ، في هذا الصدد ، لا يمكن أن تكون له الصحة المطلقة أبداً.. فالتفكير البشري موضوعيٌ ، يتأثر بزمن المفكر ومحيطه ، فإذا اعتمدنا عليه ، تتعدد مفاهيم الخير والشر وتتعارض ، ومن تعارضها ، يكون اضطراب الحياة ، وقلق الناس . والحضارة لا تستقر وتزدهر ، في أجواء الاضطراب والقلق ، بل لا بد لها من دستورٍ ثابت الأصول ، مرن التطبيق ، يشمل الحياة جميعاً ، ويرسم لها مفاهيم الخير والشر ، بشكلٍ مستقرٍ ، مستوعبٍ ملبٍّ للحاجات البشرية العامة ، تلبيةً تسمو عن الأوهام العابرة ، والأمزجة الطارئة ، والشذوذات الشرود .

إن هذا الدستور ، ويسمى في التعبير القرآني « ديناً » ،

هو ما جاء به « الإسلام » ؛ « إن الدين عند الله الإسلام » .

الإسلام في القرآن

لقد وردت كلمة الاسلام في القرآن ، كثيراً جداً ، ولكننا نستطيع أن نميّز في دلالتها بين حقبتين : ما قبل البعثة المحمدية ، وما بعدها .

دين الله ، وهدى الانسانية ، وشريعة المرسلين

ففي الحقبة الأولى ، قدّم القرآن الإسلام ، كدينٍ عامٍّ ، للبشرية كافة ، فهو دين الله ، وهدى الإنسانية ، وشريعة الأنبياء والمرسلين .

جاء في « لسان العرب » ، عن ثعلب في تفسير آية المائدة : « يحكم بها النبيون الذين أسلموا ... » قال : كل نبيٍّ بعث بالإسلام ، غير أن الشرائع تختلف .

ويقول « السر توماس أرنولد » في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » : « ... إن الإسلام كان الدين السماوي الذي اختاره الله للجنس البشري كافةً ، ثم أوحى به إليهم من جديد ، على لسان محمدٍ « خاتم النبيين » كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل » .

« أفغير دين الله يبغونَ ، وله أسلم من في السماوات والأرض ، طوعاً وكرهاً ، وإليه يُرجعون . قل آمنا بالله ، وما أُنزل علينا وما أُنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرّق بين أحدٍ منهم ، ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » .

طاقة الرشد المختزن .. والبعثة المحمدية

وكان في علم الله وحكمه ، أن الإنسانية ، قد بلغت من تجاريبها الموزعة في أمكنة الارض وأزمنتها ، مبلغها من طاقة الرشد المختزن ، ولكنها طاقة مبعثرة حائرة مغلولة ! ولذلك فهي محجوبة عن الممارسة السوية ، التي تهب الإنسانية سعادتها وجدارتها ! فقضت رحمته سبحانه ، أن يرسل فيها رسولاً عالمياً ، يكون خاتم رسله ، ليجاهد بتأييد الله وتوجيهه ، في جميع طاقات الرشد هذه ، من بعثرتها ، وهدايتها من حيرتها ، وإطلاقها من أغلالها . فكان ذلك أكبر حدثٍ في حياة البشرية ، منذ كانت ، وإلى أن تزول ، تاريخاً ومستقبلاً ! وبعث محمد ﷺ «بالإسلام» فابتدأت الحقبة الثانية من مدلول هذه « الكلمة » ومجدها وجهادها في الحياة .

موقف أهل الكتاب

كان المفروض بأهل الكتاب ، أن يكونوا أول المؤمنين ، لا سيما ، وأن الله تعالى ، قد مهَّدَ لهذا الحدث الأجل ، بأنبيائه ، ورسله ، ورسالاته السماوية ، خلال تاريخ الإنسانية الطويل . ولكنَّ كثيراً منهم ، كابر وجادل ، وغلبت عليه وساوس النفس الأمَّارة بالسوء ، فأعرض عن الحق ، لعنعناتٍ ارتآها ، أو لمصالح توهمها ، أو لحسدٍ أعمى بصيرته ! وتنزّل بلاغ الله الحكيم العليم : « إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم ، بغياً بينهم ، ومن يكفر بآيات الله ، فإن الله سريع الحساب . فإن حاجُّوك ، فقل : أسلمت وجهيَ لله ومن اتبعنِ ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » .

لم يسلموا ! كثير منهم ؛ وتستمر المعركة ... يتصـــدى الكافرون والمشركون للإسلام والمسلمين ، بالأذى ، والجدال ، والمكر ، والمؤامرة ؛ ونور الله وهديـــه ، يواكبان المؤمنين الصابرين المجاهدين ، ووحيه العلوي الأقدس يعايش الإنسانية ، عن طريق رسوله الأمين ، وكتابه المبين .

كمال الإسلام

وقضت حكمة الله ، وقد استوفى الوحي غايتـــه ، والرسول ﷺ أجله ، أن يكل المسلمين إلى ما جاءهم من الحق، وأن ينوط أمر هداية البشرية ، بجدارة العقل الإنساني الرشيد، واستجابة الفطرة لهداه ، من جهة ؛ وباتبـاع النموذج الحي ، والأسوة الحسنة في ذلك، وهي « الأمة الإسلامية » ، من جهة ثانية ؛ محملاً هذه الأمة ، أمانة تبليـغ الدعوة ، بعد أن كفل لها النصر ، وأثبت الجزاء ، وأعلن يأس الكافرين من القضاء على الإسلام ، مبيناً انهم ليسوا محل خشية ، وأنه جلّ جلاله ، قد أتم كلماته صدقاً وعدلاً ، لا مبدِّل لها ، وارتضى للبشر ، خلائفه في الأرض ، دينهم الحق : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ، فلا تخشوهم ، واخشونِ ؛ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

علـمية وعالمية

وهكذا أصبحت كلمة الإسلام ، منذ محمدٍ ﷺ جامعـــةً مانعة ، وأخذ الإسلام الجديد ، عَلـَميَّةً خاصة ، وعالميةً ممتـــدة .

الجاهلية والإسلام

ويضيق مجال هذه المحاضرة عن أبحاث هامة ، كان يتطلبها إيفاء الموضوع حقه ، على أنه لا بد من الإشارة بإيجاز زائد إلى فكرتين :

أولاهما : الجاهلية والإسلام ؛ وان كل ما ليس إسلاماً بعد محمد ﷺ فهو جاهلية .

وثانيتهما : العروبة والإسلام؛ وأن تداخلاً كبيراً قد حصل في التعبير والمفهوم بين كلمتي « عربي » و « مسلم » ولا سيما عند الباحثين الأجانب ؛ فيقال الحضارة العربية ، والحضارة الإسلامية بمعنى واحد . يقول « مورو بيرجر » في كتابه « العالم العربي اليوم » : لقد استخدمت اصطلاحات متعددة للإشارة الى القوم الذين نتكلم عنهم : الشرق الأدنى ، والمسلم ، والعربي . فالشرق الأدنى ، اصطلاح جغرافي حديث ، والمسلم يشير بالطبع إلى جماعة دينية متحدة التاريخ بالعرب ، أما اصطلاح العربي ذاته ، فهو أشدها تعقيداً على الإطلاق ، فقد استعمل قبل عصر محمد وأثناءه، ليدل على سكان شبه الجزيرة العربية ، من البدو الرحّل ، وهو استعمال ما زال شائعاً ، ولما نشر العرب الفاتحون الإسلام، تشرّبوا ثقافات أخرى، وأصبح اصطلاح العرب يطلق على نوع معين من المسلمين ، في مجتمع يميز الناس أساساً بأديانهم .. »

إن البحث في العروبة والإسلام ، وما بينهما ، يحتاج إلى محاضرة مستقلة ، وحسبي أن أشير إلى أن العرب والعروبة ، في محاضرتي هذه ، يدخلان تلقائياً في المسلمين والإسلام ، حينما استعملت هذين اللفظين .

نظام الإسلام وحضارته

بعد أن أثبتت شريعة الإسلام ، وجودها الشامل للحياة ، ساد الأمة الإسلامية ، حكمٌ مرتكزٌ على مجموعةٍ متناسقةٍ من الشرائع والضوابط والزواجر ، ندعوها بـ : « نظـــام الإسلام » ، أما الحيـــاة ، التي بدأت ثم ترعرعت وتوطدت وانتشرت ، في ظل « نظام الإسلام » وبتطبيقه ، بحركيّةٍ إيجابية ، وطاقة مستمرة ، ونماءٍ بنّاء ، في الزمان والمكان والإنسان ؛ فهي ما ندعوه : « الحضارة الإسلامية » .

أسس الوجود الحضاري

في بدهيات البحث الحضاري ، تنهض أمام المتأمل ، أسس أركان أمهاتٌ ثلاثة :

الوجود ؛ وهو الساحة الحضارية
والإنسان ؛ وهو الفعّالية الحضارية
والعمران ؛ وهو الهيكل الحضاري

وإن فطرة العقل تحكم ، بأن مركز الثقل بين هذه الثلاثة هو الإنسان ، يُسَخّر له الوجود والعمران ، ولا يُسخّر هو لهما ، وإنما ينطلق فيهما ليمارس ذاته الإنسانية فيما يحقق خيره ويؤدي رسالته .

عناصر الحضارة

وكل حضارةٍ من الحضارات ، لا بد لها ، ان تحتوي بشكل أو بآخر ، على العناصر التالية :

١) تصورٌ للحياة وغايتها
٢) عقائد ومبادىء أساسية
٣) منهج تربوي
٤) نظام اجتماعي

بناء الكيان الحضاري

وأما بنـــاء الكيان الحضاري ، فيقوم على أربـع قواعد :

١) : الإيمانية الأخلاقية .

٢) : الجمالية الفنية .

٣) : التقنية الصناعية .

٤) : الثقافية العرفانية .

وباختلاف كنه هـذه العناصر ، وترتيب قواعد الكيان الحضاري ، تختلف الحضارات الإنسانية ، بعضها عن بعض ، ويكون لكلٍ منهـا ، « سُلـَّمُه » الخاص ، الذي به تتبين الهوية الشخصية لتلك الحضارة . ويكون تميزها عن سواها .

السلّم الحضاري

بالسلم الحضاري ، نستطيع أن نرسم للحضارات ، الخطوط البيانية لحياتهـا السالفة ، وأن نحدس ونتوقع ما سيكون من أمر حياتها القائمة والقادمة .

وبالسلم الحضاري ، مضافاً إلى معطيـــات علوم الإنسان والاجتماع والتاريخ ، نستطيع أن نقدّر للحضارات ، إطارها بين الحدّ والمدّ . أي بين الإنطواء والانطلاق ، بين أن تبقى محليةً ، محصورةً في زمانها ومكانها وقومها ، أو عالميةً تتشعب في الزمان ، وتمتد في المكان ، وتنتظم عديداً من الأمم والأقوام .

وغنيٌ عن الشرح ، أن الجدارة الإنسانية للحضارة ، هي العامل الرئيسي ، في انطلاق مداها زماناً ومكاناً .

ما هي الحضارة

للعلماء في فهم كلمة الحضارة وتعريفهـا ، مذاهب وصيغٌ

شتى ، وقد يكون من أوجزها ،بالنسبة لمفهومهـــا الحديث ، أنها : « الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة » فهي مجموع الحياة ، في صورها وأنماطها ، المادية والمعنوية .

الحضارة الإسلامية

كل هذا عن الحضارة بشكل عام ؛ على أن الذي نعني به، ونركز عليه ، وننطلق منه ، في محاضرتنا هذه،فهو «الحضارة الإسلامية » ، فما هي هذه الحضارة ؟!

يقول الدكتور خلف الله أحمد : « إن الحضارة الإسلامية هي تلك الحضارة ، التي قامت على أساس رسالةٍ سماوية ؛ هي الإسلام ، ومن هنا كانت أسس تعاليمها الكبرى ، مأخوذةً من القرآن الكريم ، ومن أقوال الرسول وأعماله » . أما الدكتور حزّين فيعرفها بقوله : « إنها حصيلة تاريخ حياة المسلمين ، على أرضهم ، وفي أوطانهم المتصلة في النطاق الأوسط من الأرض ، بين المناطق الباردة ، التي تقطنها كثرة من المسيحيين وغيرهم ، وبين المناطق الاستوائية ، التي يقطن أغلبها، كثرة من أصحاب الديانات الأخرى والوثنيين» . ويزيد :« لئن كان الإسلام ، قد يمتاز بأنه دينٌ بنّاءٌ حضاري ، فإن واقع الأمر في الحضارة الإسلامية ، أنها استحدثت مقوماتهـا الأولى والأساسية ، من الإسلام ذاتـــه. وإذا كان ظهور الإسلام ، قد سبقه فيجزيرة العرب ، وما جاورها ، حضارات أقدم منه ، كما سبقه أيضاً ، في البلاد التي انتشر فيها، ألوان من الحضارات القديمة ، ذات الطابع المحلي أو الإقليمي ، فإن الإسلام استطاع أن يضفي على البلاد التي شملها جميعاً، لوناً مشتركاً من الفكر الديني،والحياة، والمعاملات ، والعلاقات الإنسانية الاجتماعية ، بل والسياسية ،

حتى أصبح هـــناك قدر حضاري مشترك ، بين المسلمين ، في مختلف أقطارهم وديارهم . »

شخصية الحضارة الاسلامية

على أنني شخصياً ، لا أستطيع أن أكتفي في تقديم الحضارة الإسلامية ، بما سبق ذكره ، بل أراها ، بالإضافـة الى ذلك : كياناً إنسانياً عاماً ، ذا شخصيةٍ اعتبارية معنوية ، فيها جانب التراث المجيد ، إلى جانب الحياة القائمـة ، الدائمة التطلع إلى السمو ، وإلى جانب الأمل الممتد ، المشحون بالحوافز الإيجابية البناءة ، بمستقبل دائم الارتقاء نحو الأفضل؛ لا لخير القوم الذين يتحقق على أيديهم ، بل لخير الأسرة البشرية جمعاء ، ولوضعها في مقام الجدارة الفعّالة بخلافة الله في الارض .

حياتها المستمرة ، وتمثلها للحضارات

إن للحضارة ، في التصور الإسلامي ، كما يبدو لي ، حياةً مستمرةً ، تصاحب حياة الإنسانية .

وأن الذي يمدّها بهـذا العمر الطويل ، الدائب الدائم ، أمران هامان :

أولهما : تمثلهـا ، وهضمها للخلاصات السوية ، من ثمرات الحضارات الإنسانية السالفة ؛ فكما أن الإسلام ، مصدّق لما بين يـــديه ، من كتبٍ وأنبياء ورسل ، فكذلك الحضارة الإسلامية ، ممحصة ٌ هاضمة لما بين يديها ، من الحضارات السليمة .

تلاقيها مع الفطرة

والأمر الثاني : تلاقٍ كامل مع الفطرة الإنسانية ، وقابلية للنماء المتكيف مع الزمن ، تكييف الفطرة الإنسانية ، مع الرقي والتطلع نحو الأمثل ، بحيث تحافظ الحضارة على شبابٍ مستمرٍ ، يعايش شباب الحياة السديدة ، في كل عصر ومصر .

عبقرية الاستيعاب

ومن هنا ، تتولد عبقرية الاستيعاب الحضاري ، لحصائل الانتاج البشري المترقي ، مما تعطي عنه الحضارة الاسلامية ، في صفحة أمسها المجيد ، مثالاً رائعاً ساطعاً ، ومما ينتظر لها ومنها ، أن تعيد تحقيقه ، في غدها المرتقب المأمول .

المنطلق الإيماني الاخلاقي

المنطلق الايماني الاخلاقي ، في الحضارة الاسلامية ، هو مقوّمها الأول ، الذي يبرز في سلّمها الحضاري ، مهيمناً على بقية المقومات ، من فنية جمالية ، وتقنية صناعية ، وثقافية عرفانية ، فهو الذي يعطيها صبغتها وسموها ، ويجعلها حضارةً باسقةً من الأرض ، موصولةً بالسماء .

حضارة صاعدة وصامدة

وصفتها الربانية هذه ، هي التي تمدها بقدرة البقاء ، صاعدةً وصامدةً . فهي صاعدة في الظروف الملائمة للتألق الحضاري ، وصامدة في الحالات التي تُقهر فيها على الانكماش والتوقف . وتتميز الحضارة الاسلامية بهذه الخاصة ، عن أية حضارة أخرى في الارض ؛ فكل الحضارات التي عرفتها الانسانية ، عاشت في إبّانها ، في حدود زمانها ، ومكانها ، وإنسانها ، حتى إذا طرأت عليها الطوارىء ، أو ألمّت الملمات ، انتهت حياتها ، وتوقفت الى الأبد لتنهض مكانها حضارة أخرى ، وقد تترك من معطياتها وحصائلها ، ما يبقى في عداد الآثار القديمة ، أو الثقافات المذخورة المفيدة ، في إخصاب التجارب الحضارية الانسانية الجديدة .

خصائص جذريه وحركية حية

بيد أن الحضارة الاسلامية ، تبقى لها خصائصها الجذرية الدائمة ، وشخصيتها الحركية الحية . فهي وجود واحد ، له في نمائه وتوقفه ، وفي ومضه وغمضه ، مراحل وأطوار ، من

الازدهار والانحسار . ولكنه لم يمت قط ، وليس من طبيعته أن يموت! وهذا هو سرُّ المواجهة العارمة المحتدمة، التي تعرَّض ويتعرض لها الاسلام في المعترك الحضاري ، مما سنلم به خلال محاضرتنا هذه ، في حدود ما يسمح به الوقت .

في المعترك الحضاري

الجهاد بين الخير والهدى والرحمانية ، من جهة ، وبين الشر والضلال والابليسية ، من جهة أُخرى ، قديم قدم الكون ؛ « ونفسٍ وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها » .

ولما كان الاسلام ، بمعناه المرسل ، قبل البعثة المحمدية ، هو دين الله ، وهدى الانسانية ، وشريعة الانبياء والمرسلين ، فهو « وحدة » بمختلف الاشكال التي تلبس بها ، يقف في جبهة ، معسكراً للخير والعدل والحق ، وتقف في الجبهة الأخرى ، كل معسكرات الشر والظلم والضلالة !

فلما بعث محمد ﷺ ، بالرسالة الخالدة، مصدقاً لما بين يديه، ورث المعركة ، وواجهها ، بكل أبعادها .

السلم أصل في الاسلام

على أن من الواضح الذي لا بد من تقريره ، بكل جزم ، أن الأصل في الاسلام ، هو السلم ، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، فهو لا يعمد الى الحرب ، إلا محمولاً على ذلك ! لا ليقر عقيدته بقوة السيف ، وسلطان الفتح ،ولكن ليزيل الحواجز، بين العقول ، وبين أن ترى الحق ، بحيث يتبين لها الرشد من

الغي ، ثم بعد ذلك ، من شاء فليؤمن ، وله ثواب إيمانه ، ومن شاء فليكفر ، وله عقاب كفرانه .

الفتح الإسلامي

أشرق نور الإسلام ، وانتشر سلطانه ، ودخل النـاس فيه أفواجاً ، من وثنيين ، وصابئة ، ويعاقبة ، ونساطرة ، ومجوس ، ويهود ، ونصارى ، وسواهم ؛ وتمّ الأمر ، باختصار عجيب للوقت ، والمشقة ، والمسافة ! فكان الفتح الإسلامي ، في اتساعه وعمقه ، حدثاً إنسانياً فريداً ، نسيج وحده ، لم يعرف له من قبله ولا من بعده نظير ، والسرُّ في ذلك على ما يبدو لنا ، تلاقي الإسلام في دعوتـــه ، مع الفطر ، والحاجات ، والعواطف الإنسانية ، في أصدق صورها ، وأصفاها .

الإسلام في الفطرة الإنسانية

فما أن شاع أمر الإسلام ، وعُرفت حقيقته ، حتى اعتنقته الأفراد والجماعات ، ساعيةً إليه ، بكل ما في أعماقها الإنسانية ، المجروحة الكرامة ، من ظمأ الى الانعتاق ، من عبودية الإنسان للإنسان ، عقلاً ، وعاطفةً ، وعلماً ، وعملاً . وقد تلاقى السعي لتبليغ الدعوة ، مع إقبال النفوس عليها ، فاختصرت المسافـة والزمن ، كما قامت حصون الحفاظ على الإسلام ، والدفاع عنه ، ضد أعدائه ، في قلوب معتنقيه ، من أرجاء الأرض المتباعدة ، قبل أن تقوم الأسوار والقلاع في الأقطار والأمصار ، فتحققت صيانة الفتح الإسلامي بيسرٍ ، واختصارٍ للمشقة والنفقة ، لم يشهد التاريخ لهما مثيلاً ، في أي فتح سواه .

الإسلام وأعداؤه

ولكن ذلك كله ، أثار حفـائظ اليهود المكابرين ، بشكلٍ خاص من جهة ؛ وأخاف الملوك ، ورجال الدين ، المسيحيين والمشركين ، في أوروبا وسواها من جهة ثانية ، إذ رأى بـــه

اليهود نهـــاية لسلطانهم في الأرض ، كما رأى به ملوك الشرك والنصرانية وكهانها ، تهديـداً لسيادتهم ومصالحهم ؛ فتلاقى على حربه ، بشتى الوسائل ، كل أعدائه . بتدبيرٍ ماكر حيناً، وبتلقائيةٍ شرّيرة ، حيناً آخر ! ولم يدّخروا في ذلك وسعاً ، حتى عكـروا صفاءه ، وأوقفوا مدّه عنـد جزيرتي الأندلس وصقلية ، ثم أثاروا الحروب الصليبية ، خلال قرنين كاملين ، يجيش فيها الغرب على الشام ومصر ، إلى أن كـُتبت الغلبـة الأخيرة للإسلام في بلاد الشام .

ضغينة مختزنة

ولكن الحروب الصليبية ، اليهودية النار والسعار ، لم تنته في نفوس سادة الغرب وقادتهم ، بل بقيت جذوات من الحقد ، تلتهب في عروقهم ، يتوارثون أجيجها ، ويُنشّأون في حماها ، على الثأر والبغضاء ، حتى أن « أللنبي » توقف عند قبر « صلاح الدين الأيوبي » رضي الله عنه ، يوم احتلال سورية ، في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وخاطبه جهـاراً : الآن يا صلاح الدين انتهت الحرب بيننا ! كما أن الجنرال « غورو » لم يتورع ، عن أن يركل ، ضريح المجاهد القائد البطل ، برجله ، معبراً بذلك عن لؤم الضغينة المختزنة ، المتوارثة في أعماق أبناء الصليبيين !

ثغرات في الكيان الإسلامي

لم يكن التصدي للإسلام جهاراً ،بعد أن توطـّدت أركانه، بالأمر السهل ، ولهذا أخذ أعداؤه يكيدون له، رويداًرويداً، حتى استطاعوا أن يفتحوا ثغراتٍ ،ينفذون منها إلى أغراضهم، ومع تتالي الزمن ، واستمرار الدس ، كان المسلمون ، ولا سيما حكامهم ومترفوهم ، يزدادون بعداً ، عن الإسلام الحق ، وكان أعداؤهم يتمكنون أكثر فأكثر ، من التغلغل ، بشكلٍ أو

بآخر ، في الكيان الإسلامي ، ويسدون نوافذ الإسلام على الحياة ، يساعدهم بعض الجامدين، من أدعياء العلم والفقه ، من حيث لا يشعرون ، ويعمل معهم ، نفر من أبناء المسلمين ، الذين غرروا بهم ، أو استأجروهم ، أو كوّنوهم وفق مصالحهم ، ولخدمة أغراضهم ! وهكذا ، بعدت الشقة بين الشريعة والسلوك ، وبين الإسلام والمسلمين ، يقول ابن القيّم : « جعلوا الشريعة قاصرة ، لا تقوم بمصالح العباد ، محتاجة إلى غيرها ، وسدّوا على نفوسهم طرقاً صحيحة ، من طرق معرفة الحق ، والتنفيذ له ، وعطّلوها بتقصيرهم في معرفة الشريعة والواقع ، ولمّا رأى ولاة الأمور ذلك ، أحدثوا من أوضاع سياستهم شرّاً طويلاً ، فتفاقم الأمر ، وتعذّر استدراكه ، وعزّ على العالمين بحقائق الشرع ، تخليص النفوس ، واستنقاذها من المهالك » .

إسقاط الخلافة العثمانية

كانت الخلافة العثمانية ، آخر سلطان ناظمٍ حاكمٍ ، للكيان الإسلامي الواسع ، فضلاً عن بسطة سيادتها ، على كثيرٍ من البلاد الأوروبية المجاورة ، وكانت العزّة الإسلامية ، شعارها على أية حال ، رغم أن الحياة فيها ، لبثت تمضي في ابتعادها عن حقيقة الإسلام . وأصبحت في أواخر عهدها ، بين شقي رحى روسيا القيصرية ، من جهة ، وحكام أوروبا النصرانية ، من جهة أخرى ، يكيدون لها المكائد ، ويحيكون حولها المؤامرات ، ويتلاقون ، رغم اختلافهم فيما بينهم ، على توهينها وحربها ، ومحاولة القضاء عليها بشتى الوسائل .

وانتهت الحرب العالمية الأولى ؛ واعتبر بعض كبار مؤرخي الغرب ، أن النصر الحقيقي الأكبر فيها ، كان بإسقاط الخلافة ،

وبعثرة أجزاء الامبراطورية الإسلامية ، وتقاسم أشلائهـــا ، وإعلان لادينية تركيا !

وقد استطاع أعداء الإسلام ، بالتخطيط البارع الماكر ، الطويل النفس ، المبذول له بسخاء ؛ أن يؤلبوا على الخلافـة أبنـاءها ، وأن يستعينوا ، لأول مرة في التاريخ ، بالعرب ، على توهين أواصر الإسلام ، في ظل أوهام إقامة الخلافة العربية الإسلامية من جديد ! وساعد على ذلك، إذكاء الروح الطورانية، بين شباب الترك ، وإشاعة التخويف من تتريك العرب ! وقد كانت أصابع الصهيونية تعمل عملها بمكرٍ وخفاء ! حتى وقعت الواقعة ، ونَـفَـذ أعداء الإسلام ، من هذا الصدع الهائل ، إلى سبل أهدافهم الخطيرة البعيدة ، في التحويل الحضاري للعالم الإسلامي ، مما يجده الإنسان المدرك البصير ، كامناً خلف كل الأحداث ، السياسية ، والاجتماعية ، والفكرية، والاقتصادية ، التي توالت وتتوالى على الأمة الإسلامية .

القومية والتغريب

وأقحمت الفكرة القومية ، الغربية الجسم والروح ، على الحياة السياسية الإسلامية ، واستُدرج لها عدد من الشباب الذين درسوا في الغرب ، من أبناء العرب المسلمين ؛ كما عمل فيهـــا بدأبٍ وجدٍّ ، المثقفون من نصارى العرب ، في خطـــةٍ مدروسةٍ مرسومةٍ ، بالاشتراك مع رؤوس التبشير والاستعمار. وشُجعت حركة نشر الآداب والأفكار الأجنبية ؛ وكانت مدرسة « رفاعة الطهطاوي » في المشرق ، وخير الدين التونسي في المغرب ، من رجال البعثات العربيـــة ، التي درست في بلاد الغرب ، قـــد أخذت تنشر أفكارها ، متأثرة بأستاذها

« سان سيمون » الذي كان ينادي بما يسميه « رهبانيــة العلم » داعياً إلى تنظيم المجتمع، على أساسٍ يحل فيه العقل محل الدين ! وواكبت ذلك من جهة أخرى حركة أحمد خان ومدرسة « عليكره » وتبعتها فتنة القاديانية في بلاد الهند ...

شعارات مزورة

كانت هذه الأفكار، تمزج بدقةٍ، وتدبير، و« بسيكولوجية » ماكرة ، مع الدعوة إلى ما يسمى بالنهضــة ، والتقدمية ، والحرية ، والعدالة، والمساواة، وتحرير المرأة، ومختلف الشعارات التي ابتكرت وزورت ، أو استجلبت من الغرب ، دون أن تعني حقيقة معانيها ، والتي كان يُبذل قصارى الجهد والخداع، لإبراز الإسلام ، وكأنه معادٍ لها ، وساعد على ذلك ، ما كان وصل إليه حال كثيرين ، ممن نسبوا أنفسهم للدين ، وادّعوا تمثيله والتكلم باسمه ، من جهالٍ ومرتزقةٍ وجامدين ، بينما انزوى أكثر الصلحاء الأكفياء ، من العلماء ، فراراً من الفتن ، والتبعات الجسام !

الدين بين الحياة والعزلة

والدين ، في الواقع ، عقيدة حية ، ذات حوافز كبرى ، تهيمن على الناس، بقيمها الاجتماعية ، ومثلها الاخلاقية ، ما دام الدين ممارساً ، حركيته وفعاليته وإيجابيته ؛ أما إذا انطوى على نفسه ، وكفّ عن الاشعاع ، فإن قدرته على ملء الحياة ، وإشادة الحضارة ، تضعف ، ويصبح نوعاً من الصلاح الفردي ، أو تقوى الزهــاد ، الذين يعتزلون المعترك ويقعدون عن واجباتهم ، وتبعاتهم ، وهذا بالفعل ، هو الوضع الذي أُوصل إليه الإسلام في تلك المرحلة ، بسعي أعدائه ، وجهل أبنائه ، وقعود علمائه ، وانحراف حكامه ! وما زالت ملامح كثيرة من

هذا الوضع ، ظاهرة في حياتنا الإسلامية المعاصرة ، حتى انه ليكاد الإنسان يلتمس العذر لدونكان بلاك ماكدونالد ، حين قال عام ١٩٠٦ ، في بحثه عن موقف الأديان من حيوية الدين الإسلامي : « ما من أحدٍ يشك في أهمية عقيدة مسلمي اليوم، وإن كانت تلك العقيدة لم تعمل على تجديد الحياة ، ولا خرجت بأصحابها إلى طور الحركة » .

والإسلام الحق ، في النظر الحضاري المنصف ، لم يفقد، ولا يمكن أن يفقد قط ، حيويته وقدرته على تحريك معتنقيه ، ولكن أين هو الاعتناق الصادق الصحيح ؟! لقد حُجز المسلمون عن إسلامهم ، واستدرجوا إلى الغفلة والشرود والركود ، وتعاون عليهم في ذلك ، الاستعمار واليهودية والصليبية ، فكبلت حيوية الإسلام وحركيته، في نفوس المسلمين، ولكن... إلى حين !

حروب التحرير الإسلامية

ظن أعداء الإسلام ، أن الأمر استتب لهم ، وأن مخططاتهم في التحويل الحضاري ، انتهت إلى أهدافها ، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك ، فقد جاءت ردود الفعل متلاحقة في أرجاء العالم الإسلامي ، فمن حربٍ إلى حرب، ومن ثورةٍ إلى ثورة، يعرفها التاريخ الحديث بأسماء شعوبها وأبطالها : عبد القادر الجزائري ، العرابي ، السنوسي ، الخطابي ، يوسف العظمة ، إبراهيم هنانو ، رشيد عالي الكيلاني... وباكستان، واندونوسيا، والصومال ، ومصر ، والمغرب ، والجزائر وسواها. ولم تستطع وسائل « ثالوث الاستعمار واليهودية والصليبية » ، على براعتها وتفننها في المكر والفتك، أن تقف في وجه هذا التيار الهادر ،

لأن الحياة أقوى من الموت ، والكرامة أبقى من الذلة ، والحق أمضى من الباطل ، وللروح سرٌ لا تستطيع المـــادة قهره ، لا سيما وأن الجذور التي نبتت منها حركات الاستقلال، وثورات التحرر والتمرد على الطغيان في العـالم الإسلامي كانت جذوراً إسلامية خالصة .

استراتيجية العدو الجديدة

وغيّر الثـــالوث « الاستعمار ، الصهيونية ، الصليبية » استراتيجية عمله، فاتجه بكل قواه ، إلى التسلط على أوضـــاع ما بعد الاستقلال والتحرر ، برواسبه وعملائــه ومؤامراته ، ووجدنا ، مع الأسف الشديد ، انحرافاً بيّناً عن الشعارات التي كان يُنادى بها ، ولا سيما عن الإسلام وشريعته ومنهاجـــه ، بل وجدنا تنكراً له ، وحرباً من بعض الحكام ، الذين نسوا ، أو تناسوا ، ان شعوبهم جاهدت وتحررت، للإسلام وبالإسلام ، وانهم لولاه ، لما وصلوا إلى سدة الحكم !

وكانت أبواق الاستعمار الخفي ، خلال ذلك ، تحاول أن تردّ الأمر ، إلى قصور الإسلام عن استيعاب الحياة الجديدة ، وتعمل على الترويج ، بمختلف الوسائل ، لضلالةٍ تدّعي ، بأن المسلمين لا يستطيعون مسايرة الرقي العالمي، ما لم يتقبلوا القواعد الاجتماعية والاقتصادية الأجنبية ، وان تقليد الحضـارة المادية المعاصرة ، بأحد أجنحتها ، هو المخرج الوحيد ، من ورطـــة انحلال المسلمين ! مما فندته العقول والأقلام المسلمة الواعية، منذ الأفغاني ، ومحمد عبده ، والكواكبي ، حتى ابن باديس، وحسن البنا ، وعودة وقطب والمودودي وسواهم ...

والواقع ، انها فلول الاستعمار ورواسبه ، تستأجر قوماً ،

وتستغفل آخرين ، وتدفع بهم في استطالات يائسة ، لحرب الصليبية واليهودية للإسلام .

لقد كانت فكرة القوميات ، أبرز ما تمخضت عنه الحرب العالمية الأولى . وكانت الشيوعية والاشتراكية ، أروج ما انتهت عنه الحرب العالمية الثانية ؛ لا في العالم الإسلامي فحسب ، بل وفي بلاد المعسكرين الرأسمالي والديمقراطي ، أيضاً .

حقيقة المعسكرات في العالم

ومن الشائع ، في التلقي العام ، ان العالم منذ الحربين العالميتين ، انقسم إلى معسكرين كبيرين : شيوعي واشتراكي ، ورأسمالي ؛ على أننا نرى ، في الحقيقة ، ان هذا الانقسام سطحي ، لا يتناول الأعماق الإنسانية ، فهو على المصالح وليس على المبادىء ! وعلى السلع والأسواق ، لا على الأخلاق والمثل العليا ! وان طبيعة التفكير الأوربي والأمريكي ، لا تكاد تختلف عن طبيعة التفكير الروسي والصيني ! كلها تقوم على اتخاذ المادية ، منطلقاً في الحياة ، وتحكيمها في العلائق بين البشر ؛ إنها جميعاً تقدح من زنادٍ يهودي !

والانقسام الحقيقي في العالم ، هو بين الإسلام ، من جهة ، وبين كل الأنظمة الأخرى ، من جهة ثانية ، مما اصطلحنا على تسميته في أول محاضرتنا بـ « الجاهلية » ! وان ما ندعوه بالتيارات المعاصرة ، التي تتصدى للإسلام ، وتحاول تفتيته وتحويله ، حضارياً وجذرياً ، لا يقتصر على الدعوات القومية أو الاشتراكية أو الشيوعية ، وإنما يتناول سائر الدعوات والمذاهب الأخرى من رأسمالية وديموقراطية ، إلى وجودية وعالمية وعدمية وغيرها . ولنضع الصهيونية دائماً قبل سواها ،

محركة ، ومتسترة في أغلب الأحيان !

وإن المتأمل بعمق ، ليرى بوضوح ، أن هـذه الجبهات والتيارات ، على ما بينها من اختلافات مصلحية كبرى ، تصل إلى حد الحروب العالميـة أحياناً ، تتلاقى جميعاً في حرب الإسلام ، بشكل أو بآخر ! فإن الواقع الذي لا ينكره إلا غافل أو مكابر ، هو ان اليهودية والصليبية والشيوعية ، ما تزال في تلاقٍ دائمٍ دائبٍ لحرب الإسلام والمسلمين، وما نكبتنا الأخيرة الضروس ، إلا من استطالات هذا التلاقي وآثاره ، التي نخطيء كثيراً ، إذا حسبنا انها ستقف، فيما يخططه لها أربابها، عند هذا الحد من البغي والعدوان !

المؤامرات اليهودية

لو ان في الوقت سعة ، لكان من المفيد جداً ، في هـذا المقام ، أن نتتبع ونهتك المؤامرات والدسائس اليهودية ، التي تظهر منفردة جلية حيناً ، وتتحالف أو تتستر ، بالصليبيـة والوثنية والإلحاد ، أحياناً ، منذ بداية الحكم الإسلامي على عهد الرسول ﷺ ، حتى اليوم ، والتي تهدف جميعاً، إلى تشويه الإسلام وإفساده ، والإنحراف بأبنائه أولاً ، وبالإنسانية ثانياً، عن سبله الحضارية ، الرحيمة الهـادية ، التي هي سبيل الله الحكيم العليم ، وسبيل رسوله الناصح الأمين .

وحسبنا أن نؤكد ، أن الأحداث التي نزلت بنا ، ومـا تزال تدور رحاهـا في كياننا وأوطاننا ، منذ أواخر أعوام الخلافة العثمانية ، إلى اليوم العتيد ، والغـد القريب ، هي من صنع يهودي استعماري صليبي ، رأسمالي أو شيوعي . ابتداء

من الدس على الإسلام وأحكامه وفلسفته، ومن استدراج أبنائه إلى المروق من عقيدته وثقافته وهديه، وانتهاء بإثارة النعرات القومية المتطرفة، والانقلابات الدموية الهوجاء، والصراع الطبقي الأخرق المصطنع، حتى آل الأمر، إلى تجزئة بلاد العروبة والإسلام، سياسياً، وزجها في معسكرات متهاترة، وإقامة إسرائيل، ثم إثارة التقدمية والرجعية، واصطناع حرب اليمن، الماحقة الحالقة، وما تم أخيراً، في ظل انقسامات واضطرابات المنطقة، والفرقة المستحكمة بين الحكومات العربية والإسلامية من سقوط فلسطين، وفي قلبها بيت المقدس، والمسجد الأقصى، تمهيداً لتهويدها، وإقامة هيكل سليمان فيها، وتهديداً بها للوجود العربي، والكيان الإسلامي جميعاً، عن طريق فرض تغلغلها في المنطقة، والإلزام بالتعامل الحر معها؛ يقول «إيرل بوغر» الكاتب الصهيوني في كتابه: «العهد والسيف» الصادر عام ١٩٦٥، ما نصه بالحرف: «المبدأ الذي قام عليه وجود إسرائيل، منذ البداية، هو أن العرب، لا بد من أن يبادروا ذات يوم، للتعاون معها! ولكي يصبح هذا التعاون ممكناً، يجب القضاء على جميع العناصر، التي تغذي شعور العداء ضد اسرائيل، في العالم العربي، وهي عناصر رجعية: رجال الدين، السياسيون القدامى، المشايخ ... وغيرهم ممن يخسرون كثيراً، إذا سادت في المنطقة اشتراكية اسرائيل النموذجية! وقد كان ابن غوريون منذ عام ١٩٥١ شديد الإيمان في القضاء على هؤلاء جميعاً، عندما طلب إلى الكنيست في العام المذكور أن يتحلى بالصبر! لأن السلام لن يكتب لاسرائيل، ما دام العالم العربي في قبضة

أبعاد نكبة فلسطين

الرجعيين، والخطوة الوحيدة التي تؤدي لعقد الصلح مع العرب، هي أن تحل في هذه الدول، محل الحكومات الرجعية، ديموقراطيات شعبية اشتراكية. » !!

استبعاد الإسلام من المعركة

ونريد أن نتوقف هنا دقيقة تساؤلٍ واعٍ، ننصف بها التاريخ، ونرفع القناع عن أعيننا لوجه الله والحق:

تُرى هل كان من المصادفات المحضة، أن الحركات الإسلامية، قد نكبت وامتحنت واضطهدت، واستبعدت عن ميادين الجهاد، في إطارات أعوام المعركة الأخيرة: (١٩٤٨) حيث اغتيل حسن البنا و (١٩٥٦) حيث سبق ذلك شنق عبد القادر عودة ومحمد الفرغلي وصحبهما وأخيراً (١٩٦٧) حيث كانت طليعة الأحداث شنق سيد قطب وإخوانه ؟! وبقاء الإسلام سجيناً مكبلاً عن خوض المعركة ؟!!

تعطيل العامل الإنساني

وما دمنا في دقيقة التوقف والتساؤل، تحرياً للحق، والتماساً للهدى، في مستقبل هذه الأمة — التي تجدنا كمسلمين وعاةٍ مسؤولين عنها، مسؤوليةً لا تنقص قط عن مسؤولية أخلص وأقدر حكامها وولاة أمورها، وإن كانت مسؤوليتهم محددةً مخولةً مزودة بالقدرة، ومسؤوليتنا ممددة متأوهة مفلولة عزلاء — فإننا نقرر بمكاشفة كلها مرارة وواقعية، أننا كأمة إسلامية، ذات رسالة إلهية، وتبعة إنسانية عامة؛ ليست قضيتنا الحقيقية، في هذا المعترك من خطوبنا ومشكلاتنا، قضية النظم والمذاهب، أيها نأخذ وأيها ندع ؟! وقد مال قومٌ منا ذات اليمين، ومال قومٌ ذات اليسار، والحال ما تزال، هنا وهناك، هي الحال !! ولكننا في الحقيقة، نواجه تعطيل

« عاملنا الإنساني » ! حين يعجز النـــاس في أمتنا ، عن استخدام عبقريتهم للاستفادة من أرضهم ، وزمانهم ، وكل وجودهم ، بالأسلوب السويّ المثمر ، المنبثق عن معـادلتهم الشخصية ، وذاتيتهم الإسلامية !

لقد تعثر فكر المسلمين ، ولا أقول الفكر الإسلامي ، عن تخطي ظواهر الأشياء ، فلم نعد نهتم بوعي القرآن بل بحفظـه وتجويده ، ولا بتطبيقه ، بل بالتبرك به... وهكذا كان تلقينا لمعطيات الحضارة المادية المعاصرة ؛ وجدنا فيها منتجات تسهل الحياة ، ومجتمعات تهب اللذة السطحية الهينة ،فاستجلبنا هذه ، وانزلقنا في تلك ، وعشنا الحضارة المادية ،دون ان نبدع فيها ، ودون أن نعمد إلى نقدها ! لقد نظرنا إليها كأشياء تستعمل ، وليس كقيم تناقش ، وأُخذنا بالشكل دون الفحوى ، فاستمر بذلك ضياعنا ! ولبثنا ، رغم مظاهر الاستقلال التي نبالـغ بالتبجح بها ونعيش مستعمرين عقائدياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً .

ما نزال مستعمَرين

واسمحوا لي أن أعبر بصراحة ، عن اعتقادي ، مهما كان مرّاً : إنني أرى أن كل العرب والمسلمين اليوم يعيشون في استعمار حقيقي ، مـا دامت اسرائيل ، مستولية على أُولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، مغرورة السلطـان ، موصولة العدوان ، وهم من حولها غثاءٌ ، يحاربون بالخطب ، ويثأرون بالاحتجاجات ، ويتعللون ويطمعون ، بإنصاف الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن !!

شكر وعذر

أيها الإخوة الأحباب : لقـــد أسمدتموني بحسن الاستماع ، فشكراً لـكم ، ولوزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية المحترمة ، التي أكرمتني بالدعوة الى المحاضرة في موسمها الثقافي فأتاحت لي التعرف على الكويت ، وتجديـــد العهد بسمو أميرها الطيب المفضال ، وفـقه الله إلى كل خير . وعذراً إذا استطال الحديث، وشردت بي هموم الأهوال التي نعيشها اليوم ، بعض الشرود ، عن سمت البحث العلمي المنهجي المجرد، الذي قد يكون مطلوباً مني ، أن أحاضر في إطاره . ولكن طبيعة البحث في الإسلام، لا بد أن تستدرج صاحبها إلى صميم الحياة !

وإذا كان الإسلام ، كما يقول « مورو بيرجر » : لم يتقدم بنظرية دينية وحسب ، بل بقانون شرعيٍ وأخلاقي ، وبمنهجٍ اجتماعي وثقافيٍ كذلك، وأنه علاوة على دعوته المتسعة وسيطرته على الجموع ، فإن تراثه يبقى وحدة بحيث يتوجب علينا ، أن نوليه الاعتبار من نواح كثيرة ... »

الاسلام كلٌ حضاري

وإذا كانت مشكلة الإسلام في المعترك الحضاري المعاصر، « ليست مشكلة اكاديمية فحسب ،لأن الإسلام حضارة كاملة » كما يقول البروفسور جب في تقديم كتـابه : « إلى أين يتجه الإسلام » .

إذا كان الإسلام هكذا بالنسبة للبـــاحثين الأجانب والمستشرقين ، فكيف يمكن لمحاضر مسلم ، تكتوي كل حياته بآلام المسلمين وآمالهم ، أن لا يتطرق إلى معالجـــة الواقع

الإسلامي ، وهو يعيشه مع أمته اليوم ، بكل ما فيه ، من قساوة وضراوة وتبعات جسام !؟

●

وجهة الاسلام في نظر استشراقي

وما دمت قد استشهدت بالاستاذ « جب » وكتاب « إلى أين يتجه الاسلام » فلنتوقف عند فقرات منه ، تدعو إلى كثير من التأمل والاهتمام :

لقد درس عدد من المستشرقين الكبار ، في هذا الكتاب أسباب مناعة الشخصية الاسلامية ، بدقة وعمق ، ليستطيعوا ايجاد ثغرات ينفذون منها إلى توهينها ! وظاهر كلامهم ، أنهم يرون أن ظفرهم الأكبر كان في إسقاط الخلافة ، التي ما زالوا يتخوفون من عودتها بأي شكل كان .

هل يستعيد الاسلام وحدته

يتساءل « كامفماير » الاستاذ بجامعة برلين : هل يستطيع الاسلام ، أن يستعيد وحدته الداخلية ،في ظل التجزئةالسياسية القائمة ، وتحت تأثير الآراء العصرية والعلوم الغربية ؟! وهل سيكون عند ذاك ، عدواً أم صديقاً وحليفاً ؟! أم أن الاسلام في سبيله إلى التفتت إلى وحدات قومية ، تعكس كل واحدة منها التأثيرات الأوروبية ، على طريقتها الخاصة ، وبأسلوبها المستقل ؟!

ويؤكد الكتاب ، بشكل عام ، أن الغرض من الجهود المبذولة لحمل العالم الاسلامي على الحضارة الغربية ، هو تفتيت وحدة الحضارة الاسلامية ، التي تقوم عليها وحدة الأمة الاسلامية... ولا يهتم « جب » بأن تتطور البيئة الاسلامية..

بل يقول : إن المهم هو : هل ستكون هناك ميول مشتركة بين الشعوب الإسلامية ؟! وهل سيقوم إحساس بوحدة العمل ، ووحدة الهدف ؟! أم ان الآراء الجديدة ، وحاجات الحياة العصرية ، ستنجح آخر الأمر ، في تشتيت المجتمع الاسلامي ، وتحطيم وحدته ؟!

تغريب الحياة الاسلامية

وبعد أن يعرب عن حرصه على إتمام تغريب حياة المسلمين بتغيير الخصائص الحضارية الاسلامية تغييراً جذرياً ! يقول : إن السبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب ، هو أن نتبين ، إلى أي حد يجري التعليم ، على الأسلوب الغربي وعلى المبادىء الغربية وعلى التفكير الغربي ! على أن هذا لا يكفي ؛ بل هو الخطوة الأولى ، ولا بد من التسلط على قيادة الاتجاهات السياسية والإدارية ! فيجب صرف الاهتمام الأكبر إلى خلق رأي عام ، بالسيطرة على وسائل الاعلام ، والاعتماد على الصحافة ! ويقرر « جب » : إن الصحافة هي أقوى الأدوات الأوروبية ، وأعظمها نفوذاً في العالم الإسلامي ، لأن معظم مديري الصحف اليومية ، من التقدميين ، ولذلك كان جل هذه الصحف ، واقعاً تحت تأثير الآراء والأساليب الاجنبية ، بشكل يكوّن الرأي العام المطلوب .. ! ويتوسع ويقول : إن هذا النشاط التعليمي والثقافي والاعلامي قد ترك في المسلمين ، من غير وعي منهم ، أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام ، لادينيين إلى حد بعيد ! ويقرر بصراحة عجيبة فيقول : « وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب ، لحمل العالم الاسلامي على حضارته ، من آثار » ! ويبدو عليه الاطمئنان حين يقول : « ... يبدو الآن من المستحيل ، مع تزايد الحاجة إلى التعليم ، وتزايد الاقتباس من الغرب ، أن يعاد الإسلام إلى مكانته الأولى من السيطرة » .

الاعلام بعد التعليم

خوف من المستقبل !

على أنه لا يقنع بكل ذلك ، فيقول وكأنه يدعو إلى المزيد: « ومع أن الوحدة الاسلامية قد انتهت من الناحية الرسمية ، والثقافات القومية قد أخذت مكانها في المدارس ، والفوارق الاجتماعية أصبحت أكثر وضوحاً ، وحصرت الثقافة الدينية في عدد قليل ؛ مع ذلك كله ، فالمعاهد الدينية ما تزال قائمة ! وما يزال حفّاظ القرآن ودارسوه، لم ينقص عددهم! ولم يضعف سحر آيات القرآن وتأثيرها على تفكير المسلمين !! » فهو لذلك

صلاح الدين جديد

يعلن فزعه بقوله : « إن الحركات الاسلامية ، تتطور عادة بسرعة مذهلة ، تدعو إلى الدهشة ، فهي تنفجر انفجاراً مفاجئاً ، قبل أن يتبين المراقبون ، من أماراتها، ما يدعوهم إلى الاسترابة في أمرها ، وهي اليوم لا ينقصها إلا وجود الزعامة ، إلا ظهور « صلاح الدين » جديد !!! » انتهى كلام جب .

أيها الحفل الكريم ؛

المسلمون والحضارة المعاصرة

إن مادية عالم المسلمين اليوم اللاواعية ، واعتياده، واستلذاذه معطيات الحضارة المعاصرة ، في حياته اليوم ؛ تحجب عنه رؤية الناحية المخيفة المنهارة من هذه الحضارة !

إن المسلم ، لم يكابد بقدر كاف التجربة الأوروبية ، وإنما اكتفى بملامستها أحياناً ، والقراءة عنها ، ولهذا ظل بعيداً عن خصائصها ، لا يعرف تطورها ، وانحلالها، بتأثير ما فيها من تهاتر داخلي ، وعدم موافقة لنواميس النظام الانساني ! ولو عاش المسلم هذه الحضارة المادية المعاصرة ، كما عاشها « الكسيس

كاريل » مثلاً ، لهاله أمرها، واتفق معه في كل أقواله عنها .

يقدم « كاريل » كتابه الجليـل « الإنسان ذلك المجهول » بعبارة الاهداء التالية :

« كاريل » يحاكم المدنية المعاصرة

« إلى أولئك الذين يجدون من أنفسهم شجاعة كافيـــة ، ليدركوا ليس فقط ، ضرورة إحداث تغييرات عقلية وسياسية واجتماعية ، بل أيضاً ضرورة قلب الحضارة الصناعية، وظهور فكرة أخرى للتقدم البشري ».

ويعالج الموضوع في كتابه فيقول : إن الحضارة العصرية لا تلائم الإنسان كإنسان ، لأنها تكوّنت ، دون معرفة بطبيعتنا الحقيقية ... وعلى الرغم من أنها أُنشئت بمجهوداتنا ، إلا أنها غير صالحة لحجمنا وشكلنا ... إننا قوم تعساء لأننـا ننحط أخلاقياً وعقلياً... إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نموّ وتقدم ، هي الآخـذة في الضعف ، والتي ستكون عودتها إلى الوحشية والهمجية أسرعَ من سواها ... إن العلم والتكنولوجيا ، ليسا مسؤولين عن حالة الإنسان الراهنة ، وإنمـا نحن المسؤولون ، لأننـا لم نميز بين الممنوع والمشروع ... يجب علينا أن نعيد إنشاء الإنسان في تمـام شخصيته ، الإنسان الذي أضعفته الحياة العصرية ، ومقاييسها الموضوعة ...

في مهـاوي التطرفات

والواقع ، أيها الإخوة الأكارم ، أننا إذا بنينا النتائج على المقدمات،لا نستطيع أن نطمئن إلى استمرار الحياة الانسانية، ما دامت في طريقها الذي تسير فيه الآن ، إنها تمضي في تدمير

خصائص الإنسان ، وتحويله إلى آلةٍ من ناحية ، وإلى حيوان من ناحية أخرى ! إنها توغل في مهاوي التطرفات ! وعلى العقلاء الوعاة ، من الناس جميعاً ، أن يتداعوا ، لتدارك الخطر ، فإن على رجل الفكر الحق ، تبعة مزدوجة ، في التماس الصواب من جهة ، وفي تسديد السير على الصراط المستقيم ، من جهة أخرى.

تبعة المسلم نحو الانسانية

وهو إذا كان ابن الرسالة الحضارية الهادية المسؤولة « الإسلام » ؛ أضحت ممارسته هذه التبعة ، أمانة رهيبة مقدسة ، تلزم عنقه ، لا ينجيه ، إلا أن يحملها على وجهها الأكمل ، « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

وإنها لأمانة دائمة ممتدة ، يتوجب النهوض بها في كل الأحوال ، أداء للحق الإنساني العام ، وتبعة الشهادة على الناس ؛ فإذا كانت الانسانية تعيش مثل هذه الأزمة الحادة العتيدة ، التي تهددها بالدمار والضياع ، وتخبط في معالجتها خبط عشواء ، فإن مبادرة الأمة المسؤولة ، إلى أداء رسالتها الحضارية الهادية ، بعزم ومضاء ، تتضاعف حتميتها ، لأنها تأخذ شكل الانقاذ السريع ، الذي يؤدي التباطؤ فيه ، إلى كارثة الفناء الانساني !

وإن الأمة الإسلامية اليوم ، رغم ما هي فيه من شقاء وبلاء ، لا تستطيع أن تقف تجاه هذا الخطر الماحق ، زائغة النظرات ، متهاترة التفكير ، مكتوفة الأيدي ، مشلولة الانطلاق ؛ لأن في انطلاقها المسدد ، نجاتها المضاعفة ، من النوازل المحدقة بها ، ومن أخطار التورط في حضارة متهاوية هلوك ، فضلاً عن نجاة الانسانية جميعاً .

يقول « برتراند راسل » : الحضارة الحديثة أهملت الاهتمام بالروح ... والعالم اليوم ، بحاجة إلى دين جديد ، يجعل غايـة الانسان ، خارج هذه الحياة !

يقول راسل في الحضارة المعاصرة

ويقول قسطنطين زريق في معركة الحضارة : إن الوعي لارتباط مصيرنا ، أفراداً ، وأمة،وانسانية ، بمصير الحضارة ، يجب إنيكون حيـاً يقظاً في هذه الأيام ، ذلك أن الحضارة الحديثة ، التي تندفع مسرعةفي مجراها، وتنهب مراحل التطور نهباً ، والتي يتسع أثرها ليعم شعوب الأرض جميعـاً ، تشكو أزمة حادة ، لم يعرف التاريخ لها شبيهاً ... فمنذ أوائل هذا القرن ، ما تزال نار الحرب الحارة والباردة ، مستعرة ، لم يسلم منها شعب من الشعوب ، وقد اشتعلت اشتعالاً هائلاً،في حربين عالميتين ، ولم تنطفىء بعد ، بل هي تتقد، فوق الرماد المنتشر وتحته ، وتوشك كل يوم، أن تندلع اندلاعاً،يقضي علىالحضارة البشرية ، بل على الحياة ذاتها ، بالزوال والانقراض، ويصاحب هذا الخطر الرهيب ، الماثل أمام البشرية ، هزّات اقتصادية ، وثورات اجتماعية ، وتقلبات في شتى الأوضاع، تتزايد يوماً عن يوم ، شدة وعنفاً واتساعاً ..! ويتحدث عنا في إطار شعوب العالم السادرة ، التي تستيقظ في قلب هذه الأزمـــة الخطيرة ، فيقول : « ... الوعي، والتحمل،والاكتواء ،وما تنطوي عليه من قلق على المصير ، ومن تبعة إزاءه ؛ هـذا النوع من التفكير المصيري،والعيش المصيري،يجب أن يتحكم باتجاهاتناوتصرفاتنا، في هذه الأيام .ومن الجرم أن نلهو ونعبث ،أو أن نسعى لإشباع أهوائنا ومطامعنـا ، في موقف يتطلب الجدّ كله ، ويقتضي أقصى ما يمكننا بذله ، لحسن الإدراك ، وسلامة العمل ، ومن

ويقول زريق

الخطأ الفادح الفاضح ، في حقنا، وحق قومنا ، وحق الانسانية ، ألا تكون مساعينا ، الفكرية منها والعملية ، متسمة بالشعور بالتبعة ، الذي يجب أن ينبثق من موقفنا المصيري ، وبالحرص الشاق الدقيق ، على ملاءمة فكرنا ، وعيشنا ، لجلال الموقف وخطره » .

إني أسوق هذه الاستشهادات ، أيها الحفل الكريم، حريصاً على أن تكون لباحثين غير مسلمين، لتكون أبلغ في الحكم على الحضارة المادية المعاصرة ، وأكثر تأثيراً في نفوس ناشئة الجيل، الذين يحملون الثقافات الأجنبية أو المختلطة . وعند كتابنا الأقطاب ، وفي رحاب إسلامنا العظيم ، آيات بينات ، لمن ألقى السمع ، أو أراد هداية واعتباراً .

اهابة في الكويت

وإني أعلن هذا القول في «الكويت» خاصة ، البلد الطيب ، الذي أنعم الله عليه ، فرفل أبناؤه في حلل الغنى والرفاه ، مهيباً بهم ، أن يتدبروا الأمر ، في نطاقه الأوسع ، ويتذكروا أيام الله ، عسى أن نُعدّ جميعاً ، للغد القريب الرهيب ، عدة تنجينا من فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا خاصة .

إننا مدعوون بالإسلام، الذي وعينا في أول هذه المحاضرة، أبعاده وامتداده ، إلى أن نصنع لأنفسنا ، وللإنسانية ، حياة من إيمان ، وجدارة ، وكرامة ، وعلم ، وعمل ، لننجو ، وينجو الكون بنا ، من هلاك محقق .

وإن علينا ، أن نأخذ بعين الاعتبار ، اختلاف الواقع الإنساني ، في أيام الإسلام الأولى ، عن الواقع الإنساني في هذه الأيام ، التي يُرجى فيها بعث الإسلام من جديد، مستهدين بقول

الرسول ﷺ : « رحم الله امرءً ، عرف زمانه ، واستقامت طريقته » .

من الينابيع الصافية

علينا أن نتبين ، ما تركته عهود التوقف الإسلامي ، في الإسلام والمسلمين من آثار ، وأن نعود دائماً إلى الينابيع الصافية ، في جهادنا ، لتحقيق الملاءمة الإنسانية ، بين الإسلام والعالم ، بعد أن رأينا ما تنتهي إليه ، التجربة البشرية المخفقة في ظل الحضارات المادية المعاصرة .

يقول « الدوس هيكسلي » ، في « الوسائل والغايات » ، إن الفضيلة والخير ، لا يمكن أن تنموا ، وتعمّا ، إذا لم يكن هناك ، نظرة قائمة على التوحيد ، وعقيدة يكون البشر فيها ، عباداً لله .

يا شباب الجيل المسلم ، المتطلع للحياة الكريمة ؛

منهج واحد ، لشخصية إنسانية واحدة

إن علينا أن ندرك جيداً ، أن الشخصية الانسانية ، وحده ، في طبيعتها ، وكينونتها ، وممارستها لذاتها ؛ فلا يستقيم أمرها ، إلا حين يحكمها منهج واحد ، منبثق من تصور واحد . اما إذا حكمت الضمير فيها شريعة ، والسلوك شريعة أخرى ، من مصدرين للتصور مختلفين ، هذا إلهي ، وذاك بشري ، فإن الشخصية الإنسانية ، تصاب بالتمزق والقلق والضياع ، كما هو حاصل بالفعل ، في المجتمعات المادية المعاصرة ! وإن دين الله ، كما يقول « سيد قطب » رحمه الله : هو وحده الذي يقدم التفسير الشامل المحكم ، للوجود والإنسان ، وعلاقتهما بالخالق والخلق ، منسجماً مع الفطرة البشرية السوية وصدق الله العظيم : « ثم جعلناك على شريعة

من الأمر ، فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، وإن الظالمين بعضهم أوليـاء بعض ، والله وليّ المتقين ، هذا بصائر للناس ، وهدىً ورحمة لقوم يوقنون » .

●

في « جنيف »
حوار وقصيدة

وبعد ؛

فقد كنت في طريقي إلى الجزائر ، أعزّي بإمامها المجاهد الشيخ البشير الإبراهيمي، رحمه الله ، وتوقفت ليلة في «جنيف» بضيافة شركة الطيران .

وفي ناد ليلي ، كنت أجلس وحيداً . أتأمل النـاس ؛ جاءت إحدى المضيفات تجلس بجواري ، وسألتني : أتشرب هنا عصير البرتقال !؟ قلت : نعم ، قالت : وهـل يمنعك الطبيب من شرب الكحول ؟! قلت : طبيب الكون الأعظم ؛ لله ، قد حرّمها ، وأنا مسلم مطيع . قالت : فقدّم لي كأساً من الخمر ؛ قلت : معاذ الله ، كيف أقدم الأذى للناس ، وقد صنت عنه نفسي ؟! قالت : وماذا يهمك من أمري ؟!! قلت : نحن من أسرة واحدة !

عجبتْ ، وسألت : كيف ؟!

قلت : أسرة الإنسانية ، إنها كلها أسرة المسلم .

قالت : ومن أنبأك أني إنسانة ؟! لقـد أنسيت ذلك من زمن طويل . !

قلت : بل إنسانة ! والمسلم لا ينسى الحق .

قالت : دعك من إنسانيتي ! أنا هنا لأمارس حيوانيتي . . .

قلت : وليس مكانك هنا !

قالت : وأين ؟!

قلت : إلى جوار سرير طفل ... في كنف زوج .

فأخذتها حرقة ، وتساقطت من عينيها دموع ، وتمتمت :

— ما أرحمك .. وما أظلمك ..!! ذكرتني بإنسانيتي ، فأحييتني حتى أبكيتني !! ولكن ، ما الجدوى ؟! إنسانة ! ولا أستطيع أن أعيش إنسانيتي ربع ساعة ، نتابع حديثنا !؟ فإن عليّ أن أقوم فوراً ، لأمارس « حيوانيتي » مع سواك ، وقد أخفقتُ معك ، لأنها مهنتي ! ونظرات صاحب النادي تلاحقني لذلك ، بضراوة لا رحمة فيها :

طوفان

طوفان

البائساتُ ، المائساتُ ،
كآلةٍ مِنْ غَيْرِ رُوحْ

الناشراتُ شذىً ، ومِنْ
أعماقِهِنَّ أذىً يَفوحْ

الضاحكاتُ ، وَقَدْ طَوَيْنَ
قُلوبَهُنَّ على جُروحْ

آلامُها الحرَّى ، مع ..
الزفراتِ ، في لَهَثٍ ، تَنُوحْ

وَلَقدْ يُقال : ألِفْنَ ما
يَحْيَيْنَ فيهِ مِنَ ٱلْجُنُوحْ

وَنَجَيْنَ مِنْ رَهَقِ ٱلعُقُولَ
.. مِنَ ٱلغُموضِ ، مِنَ الوُضُوحْ

وَسَعِدْنَ بالأَيامِ تَمْضي
.. بٱلغَبُوقِ وبالصَبُوحْ

فَنَقُولُ : بَلْ خدَّرْنَها !
وَغداً يكونُ لها جُمُوحْ

وَلعلَّ ذا قَلْبٍ يرى
مَأْسَاتَهُنَّ كما تَلُـــوحْ

وَسَلوا الشَقَاءَ ، وإنَّــــهُ
بِئْسَ ٱلَمصِير ، فَقَدْ يَبُوحْ

ما للحياةِ ، حَيَاةِ دُنيا ..
ٱلغَرْبِ مَلْأَىٰ بالقُرُوحْ

ألرِّقُّ فَنٌ ! والتَّسابُقُ
.. في الضَّلالِ هو الطُّمُوح

وَ « الجاهِليَّةُ » هَكذا تمضي
. . وإنْ لَبِستْ مُسوحْ

يا رِدَّةَ ٱلبَشَرِيَّةِ الرَعْنَاء
.. عَنْ هَدْيِ سَبُوحْ

الطائِرُ ٱلمَكْدودُ في ..
الأَوداءِ كَلَّ عن السُّفُوحْ

سَيَغيبُ في وَهَدَاتِهِ
فَكَأَنَّهُ آلٌ سَنُوحْ

حَتّى وَلَوْ رَادَ ٱلفَضَاءَ
.. وَشادَ في النَجْمِ الصُّرُوحْ

ما قيمَةُ ٱلتَحْليق في ..
الأَجْواءِ نَلْتَمِسُ الفُتُوحْ

والشرُّ في أَرضِ « الخلافةِ »
.. مِنْ مَفاسِدِنا رَمُوحْ !

●

يا أُمَّةَ الإيمانِ نَهْداً ،
قَدْ كَفى طَيُّ الكُشُوحْ

مَسْتَخْلَفُونَ على الحياةِ ؛
أَما نَشُدُّ ، أما نَروحْ !!

أَيْنَ الأُبُوَّةُ والهدى
أَيْنَ المُبادَرَةُ الطَمُوحْ ؟!

أَلْكَلْكَلُ ٱلْغَرْبِيُّ والدُّنيـــا
.. رُزُوحٌ في رُزُوحْ

لا بدَّ للظُلُماتِ والظُلْمِ
.. الْمُرَكَّبِ مِنْ نُزُوحْ

يَهْتَزُّ ميزانُ الدُنى
وَٱلْحَقُّ أَصمدُ للرُجوحْ

وَالدَهْرُ قِسْطاسٌ ، وإنْ
أَغْضَى ، فما هُوَ بالصَفُوحْ

أَلآلَةُ الصَّمَاءُ ، والشهواتُ ،
.. وَالطَبْـــع ٱلْجَمُوحْ

مِنْ ذاتِها ، بِأذاتِها
سَيَدُكُّها قَرْنٌ نَطُوحْ

يا نَجْدةَ الإنسانِ ..
بالقرآنِ ، بالخيْرِ النَّفُوحْ

إنّي لأخشى قبْلَ مُنبَلَجِ
السنا ، طُوفانَ نوحْ !!



تقدير . . . ورجاء :

- يسجل المحاضر تقديره للأساتذة الذين اقتبس من آثارهم ، أو شاركهم في آرائهم .

- ويرجى ممن له رأي أو ملاحظة ، حول هذه المحاضرة ، أن يكتب له بذلك مشكوراً ، الى العنوان التالي :

5 شارع آجاكسيو

الرباط – المغرب

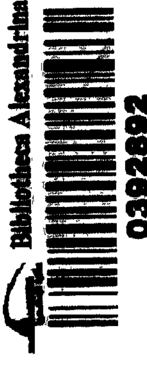
المحتوى

صفحة

صفحة

صفحة





الثمن ١٠٠ ق. ل